بلاغة الإحتجاج

إيمانويل دانبلون

ترجمة : حسن الطالب

تعد بلاغة الاحتجاج البديل البذيء والتنويري للبلاغة الوجيهة سياسيا. هذان الوجهان المعاصران للبلاغة مؤسسان على نفس التصور الديمقراطي حيث يتم التشديد على حماية المواطن بدل التشديد على مسؤوليته و قدرته على الفعل وأمام الخوف المشروع من السيطرة والتلاعب بالعقول، فإن هاتين البلاغتين المعاصرتين تقدمان إجابة عبر حماية مواطن سلبي ومطفل.

إن مثل هذه المواقف البلاغية كانت موجودة على الدوام . وقد استعملت بلاغة الاحتجاج، تقليديا، من قبل خطباء ديماغوجيين يحرفون الحكم النقدي إلى شك معمم من خلال استغلال غضب الناس وخوفهم وأقلهم تثقيفا و تكوينا بيد أن هذه البلاغة ،كانت من الناحية التقليدية ، تحتل مكانة على هامش المجتمع ،و ظلت ،مع ذلك محكرا على أنواع خطابية و اعترف لها بهذه الصفة . ويعثر عليها في المناشير كتب الهجاء و التهجم أو في بعض التجمعات السياسية . وبتموضع هذه البلاغة في هذا الإطار فإنها كانت تلعب دور الهدم و التدمير المزعج، و المفيد أحيانا بهدف إعادة النظر في الأفكار الشائعة أو المسلم بصحتها . و بدأت صيغة أخرى لهذه البلاغة الديماغوجية في الانتشار بداية الثمانينات.وقد عملت على التخلي عن التجمعات المحدودة و المنابر الديماغوجية للاستئثار بقلب المؤسسات الرسمية من خلال إبرازها ،بطريقة نموذجية ، للمنظور ما بعد الحداثي الساعي إلى الخلط بين الأنواع الخطابية. وهكذا سيطرت هذه البلاغة على مسارح الفضاء ووسائل الإعلام و التدريس ، و السياسة طبعا. وكان هذا المظهر الجديد لكلام هجائي يقدم نفسه باعتباره كلاما رسميا يقض المضاجع لأنه كان يشوش، بالتحديد، على المرجعيات المؤسساتية.

ومن الموقف النقدي الضروري للديمقراطية أعادت بلاغة الاحتجاج،مع ذلك ، استخدام عنصر أساسي سنعود إليه لا حقا يتمثل في الحكم على قيمة أو عدد من قيم المجتمع بطريقة فردانية . وكما قيل فإن المؤسسة البلاغية تقتضي دائما خطيبا و مستمعا ينبغي على كل منهما التعرف على الآخر بوصفهما

مشاركين في الجدال كان على كل خطيب مهيأ للنقد أن يعترف به في وظيفته من قبل الجماعة الحجاجية. ومن جهته ، فان الخطاب الهجائي لا يعنى بهذا الاعتراف المتبادل مادام يضطلع بهامشيته ويجتهد في النهوض بها . وبإضفائها طابعا مؤسسيا على نفسها كان على بلاغة الاحتجاج أن تجد لنفسها استراتيجية من خلال لعبها على الحدود الفاصلة بين المؤسسة والهامشية. وهكذا استقت من داخل ما تندد به ذاته ، مبادئ انقلبت على نفسها انقلاب السحر على الساحر :" أه أنت تدافع عن التسامح الكوني ؟ حسن في هذه الحالة ينبغي مسامحة الجميع . فحق الكلام مكفول للجميع ". إن هذا الخطاب الشائع جدا الذي يقرع الآذان كمفارقة يتمثل ببساطة في اختزال كونية الحق إلى ضرورة كونية فعلية . ويجد المجتمع نفسه وهو يفرض خطابا يجهل ما إذا كان خطابا ديمقراطيا أم لا ،غير أنه ملزم بسماعه باسم فعل كونه خطابا. ما يفسر السبب الذي من أجله يشعر المواطنون فيه أحيانا، على نحو غامض ،أنه ليس من الحق الكلام عمن نسميهم أحيانا أعداء للديمقراطية دونما قدرة منا على تبرير شعورنا ذاك . ويبدو أن الكلام العام ،خلال هذه الاستراتيجية ،يحجز كرهينة . إذن على م يدل ذلك بالضبط ؟ فتبعا لمبدإ الاختزال المسترسل، الذي أصبح شائعا منذ الآن ، تختزل كونية الحق إلى كونية الفعل ويختزل النقد العام إلى الرأي الشخصي وتختزل الوظيفة العمومية للخطيب إلى احترام وتقدير للشخص . والحال أن شغل وظيفة الخطيب في جدال عام يعود إلى تبني موقف متفق عليه ينبغي أن يكون محل إجماع من قبل الجميع. يمكن لهذا الموقف أن يفرض من جانب واحد وهذا ما نصادفه ،مع ذلك ، من الناحية الكلاسيكية، في مقدمات الكتب الاستنكارية التي تستعمل خصيصا بلاغة التنديد :

" هل ينبغي على أفكارنا أن تخضع للمراقبة وأن يتابع المنشقون عن الإجماع ب"جريمة الرأي "؟هل تريد إنشاء محاكم التفتيش لملاحقة الهرطوقيين والمنشقين ؟صباح الخير أورويل ، انكب على قراءة نقدية لهذا الكتاب الموثق توثيقا محكما من أجل بناء حكمك الخاص عليه "

وإذا كان الحصول على حق الحجاج عادة ما يتم في إطار طقس بلاغي ، فإن الكلام هنا يكون مقيدا بفعل الضغط الذي يمارس على المستمع .ويبدو أن الديكور الكلاسيكي للنقد التقليدي يطرح نفسه على الخطيب الذي يقدم نفسه بوصفه مهيئا للحكم على مبادئ عامة يتبناها المجتمع عبر فعل للاختيار الفردي يكون شجاعا وحرابيد أنه يوجد، ضمن هذا المسعى ، تحول قسري يعمل على إفساد معنى النقد ؛ ذلك أن الحكم على قيمة برهان ما يدخل ، دائما،في نطاق اللوغوس .وهذا يعني ببساطة أنه يجب على النقد أن ينصب على المبادئ لا على الأشخاص والحال أن لعبة النقد ، ههنا، تتحول من لوغوس إلى إجماع و خطاب تهييجي . فالخطيب، في الواقع ، لم يحصل على حق الحجاج و تظل الوظيفة إذن ملتبسة

بالشخصية تشخصية مرشد يستهوي الجماهير شخصية لم يساهم الناس في إض فائها عليه. وكما كان الحال، بحكم الوظيفة ، في المجتمعات الشفاهية تجد قيمة الخطاب نفسها هنا مقيدة بالشخصية أكثر مما هي مقيدة بخاصية الحجج و البراهين ، في حين أن إمكانية الفصل بين الحجج وبين الشخصية شرط لا مناص منه من أجل علمنة اللغة و دمقرطة المجتمع.

من جهة أخرى فإن بلاغة الاحتجاج غالبا ما تستحضر الوجوه الرومانسية الكبرى التي أسيئ فهمها أو فرضت حولها الرقابة ؛ تلك الوجوه التي كانت تدافع عن العقل والحرية ممثلة في أكبر ضحايا الاعتقال الفكري،وملاحقة المعارضين السياسيين ...إلخ.وثمة فائدة أخرى ،ذلك أن الخطيب الذي يحتج يستغل في هذا الصدد فرصة الإستفادة من المزايا الإيجابية المضفاة ، تقليديا،على الضحية البر يء. إذ أن لصورة الضحية البريتأثير عاطفي شديد في الفكر الحديث فلأن هذه الصورة بنيت ، هي نفسها، على اختزال أفقي نجدها تخلط بين التصور القانوني للبراءة و بين التصو ر الأخلاقي للشفقة تجاه الضحيةالذي يتألم . وإذا كان كل ضحية غير برئ ،من منظور القانون ، فإن ذلك ما يراه ويفرضه الاختزال : فأن تكون ضحية يعني أن تكون بريئا من تم تستفيد لعبة البلاغة ،عند من يحتج ، من هذا التحول من الشفقة نحو العدالة بانيا لنفسه ، بالتالي، الإجماع الخاص بمن له الحق و يجهو و يدافع عن العقل حقا . ومن جهة أخرى فإن المستمع ينظر إليه ههنا ،في أحسن الأحوال ، كما لو كان شخصا ساذجا ينبغي تنويره وتوعيته وينظر إليه ،في أسوإ الأحوال،كما لو كان الجبان الذي ينبغي التصدي له . من هذا المنظور فإن الارتباط بمبدئ المجتمع سوف يكون ،على الدوام ، علامة على سذاجة كبرى أو على مشاركة خجولة في مؤامرة الأقويا،وهكذا لن يكون ثمة رأي سليم سوى خارج حقل الجماعة .هذا الموقف الذي عادة ما يدافع عنه الكلام الموحد متماسك ما دام يعبر عن نفسه انطلاقا من هامش الجماعة ،غير أ نه موقف يفرض نفسه في قلب المجتمع من خلال إحداثتناقضا غير محسوم في أمره . وباحتلال بلاغة الإحتجاج لقلب المؤسسة فهي تطالب بأن تكون داخل المجتمع و خارجه في الوقت ذاته.

على عاتق من تقع الحجة ؟

كيف تحرف هذه الديماغوجية المأسسة وجهة النقد ؟ فالشخص الذي ينتقد دائما النظام القائم يجازف بخطر إزعاج المجتمع،دام، لا ينفك ينتقد مبادئ هي موضع إجماع واسع . وههنا تكمن، بالتحديد،صعوبة الوضعية وخطورتها . والحال أن من واجب المنتقد الإدلاء بعناصر جديدة و البرهنة على مسعاه. ومادام هو من يتقدم بالحجج ، فعلى عاتقه تقع مهمة النقد،وهذا يعني أن من ينتقد ، في لعبة

الجدلي يجتهد من أجل الإقناع ونيل رضا المستمعين المنضوين ، مسبقا، تحت لواء المجتمع وضوابطه. ومن المدهش أن نلاحظ أن بلاغة الاحتجاج تقوم بعملية قلب عند من تقع على عاتقه الحجة؛ فما دام المجتمع يتموضع ،منذ البداية ،جانب ما يعد بدهيا، فإنه برمته هو من يتحمل العبء . وهكذا يكون المستمعون أمام خيار لا مهرب منه ؛ فإما أن ينحازوا إلى المجتمع القوي والمستبد جدا ويشعرون بالخجل من عدم انحيازهم إلى جهة الحق ، وإما أنهم ينحازون إلى جهة النقد الذي يرفض أن يأخذ على عاتقه مهمة تقديم الحجة؛ هكذا يعتقدون أنهم في صف الجانب الأصح ، لكن دون أن يدروا لماذا، لأنهم يمنعون، رغم المظاهر، من ممارسة حسهم النقدي و بناء حكمهم الخاص بهم.

لقد أتينا، ههنا، على وصف الآلية التي تبرز كاتجاه في مجتمعنا .فعلى صعيد الوقائع كل طرف يقدم الحجج و لا يتم الحسم أبدا في الأمور حسما نهائيا .و يبقى أن الإستراتيجية المتقدم بها بوصفها ضمانة على النقد والتي أتينا على وصفها الآن تعمل على تغيير مسار اللعبة و تشل من تبادل الحجج .ذلك أن الذين يفتقدون البداهة و الوضوح ليس عليهم الإدلاء بالحجج وأما الذين يقع عليهم ، دون وجه حق، تقديم الحجج فقد حاججوا جيدا وكل ما وسعهم قوله قد تم إقصاؤه مسبقا منذ البداية.

إن الرهان المراهن عليه في كل ما سلف ليس رهانا عاديا ، لأن الأمر يتعلق بتوضيح أن كل إنجاز و تفعيل لنقاش نقدي يعمل على مستويين أساسين : أولا على المستوى الحجاجي للاستدلالات، وثانيا على المستوى البلاغي الإقناعي؛ جميع الذين أسهموا في تطوير المجتمع على الصعيد العلمي و السياسي ، أو في أي ميدان من ميادين الحياة الاجتماعية يعرفون ذلك حق المعرفة.

وهناك فترات ينبغي فيها معرفة إعادة النظر في الأفكار الشائعة وتعد مرحلة النقد هذه مرحلة إضعاف للمجتمع وهي خطيرة بالنسبة لمن يجازف بركوبها لهذا تتدخل الإستراتيجيات البلاغية . ففي المناظرات الخطابية من يحاجج يعرف جيدا أنه في وضعية غير مريحة . وهكذا ترتكز المهارة الخطابية كلها على نقل عبء الحجاج إلى كاهل الخصم وبالتالي دفعه على نحو ما إلى الحجاج وحده و تقديم بيانات إلى المستمعين. غير أن الأمر يتعلق بعملية إخراج بلاغية للحجاج و لا يجد أي طرف من الأطراف المشاركة في المناظرة،في نهاية المطاف ،نفسه مغبونا داخلها . والكل يعرف أن لعبة القلب هذه لا تركز على الجوهر؛قلب مهمة من تقع على عاتقه الحجة لا يمكن،في كل الأحوال ، أن يصبح مبدءا للحجاج وإلا ألغيت كل إمكانية للنقد الحقيقي . إن الفصل الذي يفضي إلى التمييز بين المستويين الخاصين بالحجاج والبلاغة موجود في قلب المؤسسة الخطابية .فالأولى تؤثر في فعل النقد ومراجعته؛ المجتمع ، وأما الثانية فتسعى إلى العصف بانتماء المستمعين أو تحزبهم عبر بناء ما يوحد بينهم و ما يهيج مشاعرهم.

ما النقد ؟

يعتبر النقد حكما فرديا حول أحد المبادئ الأساسية الكبرى للمجتمع أو ، بالتحديد، حول مضمون تطبيقه في مجال محدد من مجالات الحياة العامة : حرية التعبير، الحق في الرعاية، تكافؤ الفرص، حق اللجوء السياسي...إلخ ولهذه المبادئ خصيصتان متناقضتان ظاهريا غير أنهما يحملان معناهما التام في الإطار البلاغي الذي نحن بصدد وصفه . بدايتهما مرتبطان بثقافة ومرحلة معينة ، كما أنهما تواضعيان و يصدران عن توافق جماعي ، مما يجعلهما ، بالطبع، على الدوام قابلين للمراجعة وإمكانية التطور . وبما أنهما يشكلان، بعد ذلك، عامة التي على أساسها تبني الجماعة قراراتها وأحكامها ، فإن تقديمهما والشعور بهما أشبه بالمطلق والمحسوم في أمره والمسلم به.

وتنطبق هذه المبادئ على ما كان القدماء يسمونه : الأماكن المشتركة، ومجموعة من القضايا العقلانية والمنطقية التي تلامس جميع ميادين الحياة العلمية . وتلك خاصية بلاغية بامتياز للأماكن المشتركة لأن تكون قابلة للنقاش في الوقت الذي تقدم فيه نفسها عكس ذلك ويدرك تناقض من هذا القبيل ، بوضوح أكثر، كلما استحضرنا ذلك الطقس البلاغي الذي يحاجج بالنقد بيده اليمنى ، فيما يطمئن بالنقد بيده اليسرى بعيدا عن أن يكون ذلك بمثابة تذبذب عقيم علينا أن نرى فيه على العكس من ذلك ، تراتبية تسمح بتطوير بنى المجتمع على المبادئ أن تقبل المراجعة و الإنفتاح على النقد كي لا تكون دوغمائية . وبالتالي فإن الذي يعمل على إثارة تلك المبادئ لا يستطيع تقويضها في الوقت ذاته . ولهذا السبب على الخطيب المفترض أن يحصل على حق الكلام وأن يشغل وظيفة الخطيب حقا وهذا يفترض أن عليه ، حتى في منطلق الفاعلية النقدية ، أن يحصل على " إذن بالحجاج "من لدن المستمعين أما إذا كان الأمر ذلك وكان المستمعون يتلقون النقد بوصفه هدما وأمرا أكثر إهانة فإن الجدال لا يمكن مباشرته . فالحصول على حق الحجاج يتم ، بطبيعة الحال ، عبر بناء ما يوحد الجماعة و كذا الكيفية التي يقدم بها الخطيب نفسه إلى المستمعين وعلى الرغم من نيته الحكم على بعض المبادئ بعنف فينبغي أن يبرهن ، وهو يفعل ذلك، أنه يفعله انطلاقا من قيم الجماعة وباسم الجماعة وباعتباره عضوا من أعضائها.

ولنأخذ مثالا نموذجيا حيث يتم النقد بطريقة صعبة وشاقة . ففي نص صغير منشور عام 1952 يحتج جان بولهان على الممارسات التي يرى أنها غير عادلة ووحشية في تصفية المتعاونين مع العدو المحتل إبان الاحتلال الألماني. فقد كان يحاجج فوق أرضية ملغومة لكونه كان يجابه إجماعا قويا جدا ما يزال يثير الحساسية والمشاعر، ممثلا في المقاومة ، فباسم المبادئ التي يرى أنها مبادئ أسمى من مبادئ الانتقام نجده

يطالب للمتعاونين مع المحتل بمحاكمة مستوفية للشروط و الأصول من شأنها أن تضع مسألة التصفية في إطار مطابق للعدالة وللمبادئ الإنسانية . ولنرى كيف يبني بولهان وجهة نظره في إجماع الجماعة للحصول على حق الحجاج : "أيها السادة : أنا مقاوم، وقد بدأت مقاوما منذ شهر ماي 1940 و مازلت مقاوما، أفيإ لا زلت أعتقد ذلك على الأقل ومع ذلك فإني لم أعد أشعر بالفخر بقدر ما أشعر بالمهانة و الخجل . أصبحت أدرك أن المقاومة ليست بالبساطة كما بدا لي منذ الوهلة الأولى ".يضع بولهان يده مباشرة على الهدف : إن ما أراد قوله بالحرف مدفوع بشعور شخص ينتمي إلى الجماعة روم يالنقد باسم القيم المشتركة بين الجميع . وهذا ما تنتجه المهارة الخطابية بمجرد ما يبنى إجماع الجماعة دون موارية.

"فإذن ينضم إلى المقاومة يشعر على الفور براحة ما يمليه الضمير ... إنه يشعر، على كل حال، أنه أحسن الاختيار : أي الانحيازإلى جهة العدالة والحق .وهو شيء يستحق الحياة والموت. نعم هذا ما كان يراه المقاوم. وبالطبع فقد كان مخطئا في تصوره ". إن انتماء بولمان إلى جماعة المقاومين أتاح له تفعيل نقده بطريقة لاذعة وساخرة .هكذا نجده ،من غير قصد ، ينتقد تطبيق مفاهيم العدالة والبطولة إبان تصفية المتعاونين مع ا لمحتل.تتيح لنا إثارة هذا المثال النموذجي بقياس الأشياء الموظفة في النقد . و الملاحظ أن الأمريتعلق بعملية قدر كبير من الصعوبة والخطورة تضعف موقف من يفعلها و ينجزها. ولهذا السبب كان عليهما كانت حدة مقاصده بعد ذلك أن يتموضع داخل الجماعة الحجاجية لكي يستطيع نقد القيم من الداخل. ورغم النبرة الاستفزازيةلضلال المعاني الهجائية ، من المناسب تمييز العملية النقدية لبولهان عن بلاغة للاحتجاجتعمل عكس ذلك تماما .وكما رأينا ، يتموضع الخطيب خارج الجماعة الحجاجية ويلزم المستمعين بالإنضمام إليه خارج الإطار المشترك ؛ فهو لا يطالب بأي حق في الحجاج، بل إنه يفرضه فرضا بصراحة تامة بإلقاء مهمة إجماع الجماعة ـــ كما الحجة ـــ على عاتق المستمعينمع ذلك فإن النقد يعني القبول بامتلاك مهمة الإدلاء بالحجة و القبول بطلب الحق في الحجاج.